

الصورة الرمزية في الشعر الجزائري المعاصر

طالبة دكتوراه خديرة خضرة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والفنون

جامعة سيدي بلعباس

لجأ الشعراء المبدعون إلى كتابة الشعر باعتباره السراج الذي يضيء مكونات النفس والملاذ الذي يفرون إليه للتعبير عن تجارب واقعهم بلغة شعرية قادرة على إخراج الأحاسيس الكامنة في النفس فكان الرمز الوسيلة الرئيسية التي يتوسل إليها الشعراء من أجل البوح عما في أعماقهم، فهو شكل من أشكال التعبير عن الأفكار ومن أبرز وسائل التصوير، وقد عرف منذ القديم حيث استخدم في البلاغة من خلال الربط بين الحقيقي وغير الحقيقي وهذا على وجه التلميح والإيماء، فكان الرمز سمة من السمات الأساسية الأصلية في الشعر إلا أن استخدامه في النص الإبداعي في الشعر العربي القديم انطلق: "من القوانين البلاغية المتمثلة في الاستعارة والكناية والتشبيه البليغ والتشبيه التام..."¹

أدرك الشعراء الجزائريين الرمز فراخوا يوظفونه بجميع أنواعه ولكن لم يكن بنفس درجة استخدامه في العصر الحديث لأنهم عرفوا ما يتميز به الرمز من منح الفرص للقارئ من أجل

الإيجار في دهاليز القصيدة فأصبح الشعراء يعتمدون الرمز في رسم صورهم حتى يضيف عليها نوعا من الغموض فالنص هو "جهد تعبيري يحتشد بالدلالات الرمزية التي تتفاوت حيوية وفراة من شاعر إلى آخر" ² وبذلك يكون الرمز بمثابة الوقود لسيارة الصورة التي يرغب الشاعر في تجسيدها.

إن المتتبع للشعر الجزائري يلحظ أن الظروف السياسية والاجتماعية أثرت على تطور التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة فقد كانت أثناء الثورة التحررية تعتمد على الرموز التي توحى على الصراع والظلم والقهر والنضال، فوظفوا العنكبوت والتمساح والغراب والغول لتدل على الاستعمار، كما وظفوا الفجر والنور وغيرها من الرموز التي تدل على الحرية الموعودة، ذلك أن الظروف السياسية التي كانت تعرفها الجزائر في تلك الفترة فرضت عليهم الاستعانة بهذا الرموز، ولأننا في مجال الحديث عن القصيدة الجزائرية المعاصرة نجد أنها قد احتفت بالإيجاء الذي يتولد من الصورة والرمز أحد وجوه الصورة فهي تستعين به حتى تضيفي على نفسها عمقا وغموضا ذلك أن الشعر الجزائري انفتح على نوع من التمرد لرفض الواقع المعاش والبحث عن البديل الذي صاحبه الكثير من القلق والضياع والاعتراب والحنين إلى الطفولة، فاستخدموا الرمز كقناع للتعبير عن همومهم ومعاناتهم وآلمهم، فقناعتهم

تكنم في أن "لغة الشعر يجب أن تبتعد قدر الإمكان عن الوضوح والتحديد والرمز وحده هو الذي يضيف على لغته مساحة من العمق والشفافية والإيحاء ويعين الصورة لثلا تكون تشابها بين شيئين"³ فالشعر اعتمد في بناء صورته الشعرية على وسيلة الرمز ليدل على معاناة مختبئة في نفس المبدع لا بد التصريح بها" فهو تعبير عن الأحاسيس التي تكتنف روح الشاعر.

إن توظيف الشاعر الجزائري المعاصر للرمز يترنح بين رموز معروفة كالرموز المنتقاة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومن القصص الأسطورية والتراث التاريخي وغيرها من الرموز التي توارى خلفها الشعراء.

1- الرمز الديني:

أضفى توظيف الرموز الدينية القوة والمصداقية للنص الأدبي "فتوظيف النصوص الدينية في الشعر يعد من أنجح الوسائل، وذلك لخاصية جوهرية في هذه النصوص تلتقي مع طبيعة الشعر نفسه وهي إنها مما ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره كما أسلفنا فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينيا أو شعريا وهي لا تمسك به حرصا على ما يقوله فحسب وإنما على

طريقة القول وشكل الكلام أيضا، ومن هنا يصبح توظيف التراث الديني في الشعر - خاصة ما يتصل منه بالصيغ - تعزيزا قويا لشاعريته ودعمًا لاستمراره في حافظة الإنسان" ⁴ مما يساعد على نجاح الشاعر في استثمار رموزه من التراث الديني.

عند طرق باب الشعر الجزائري المعاصر نجده قد استهواه التراث الديني ليتخذ منه رموزا، خاصة شخصيات الأنبياء عليهم السلام المليئة بالتضحيات والعطاء وتحمل المعاناة من أجل حمل الرسالة السماوية، وقد حاول الشعراء استثمار ما تحويه من طاقات إيمانية، فالشاعر "يوسف وغليسي" وجد في الرمز الديني منفذا للتعبير عن تجربته الشعرية إذ يقول:

يسألونك عني...

قل إنني ما قتلوني وما صلبوني. ولكن

سقطت من الموت سهوا...

رفعت إلى حضرة الخلد... ⁵

أغرت قصة سيدنا عيسى عليه السلام شعراءنا المعاصرين لما منحتها لهم من قدرة على التعبير عن آلام الإنسانية ومعاناتها من مرارة الواقع الذي تعيشه، فالمسيح هو رمز من رموز العذاب، والخلاص في الوقت ذاته، وفي هذا النص جاء المسيح ليرمز به على الخلاص من المعانات من خلال

قوله: "سقطت من الموت سهوا" فعند سماع هذا البيت الشعري يتبادر إلى الأذهان أن هذا النبي لم يميت، مما سيتوجب استحضار صورة المسيح عيسى عليه السلام، فالشاعر يعتبر نفسه نبيا فهو يتحمل العذاب لأنه حامل لرسالة مقدسة وهي استرجاع الوطن الذي ضاع. كما نجد قصة سيدنا سليمان عليه السلام هي الأخرى قد شددت اهتمام الشاعر "يوسف وغليسي" من خلال قوله:

نهبوا ملك بلقيس من يدها

أوقفوا هدهدي

صادروا مصحف⁶

إن توظيف الشاعر لهذا الرمز يكشف مشاعر الحزن والضيق الذي يكتنفه جراء ما يتعرض له وطنه من نهب وتخريب، فالهدهد وبلقيس هما رمزان يجعلان على قصة سيدنا سليمان عليه السلام، وعلى الحوار الذي كان كفيلا بأن يسود السلم في تلك الفترة من الزمن، إذ جنب الحوار الهدهد الذبح كما جنب الحوار مع بلقيس الحرب والتدمير، وتوظيف الشاعر هذين الرمزين ما هو إلا اختزال ومحاولة لبث ثقافة الحوار في المجتمع حتى يتشرب السلم فكانت بلقيس في هذه القصيدة رمز للوطن الذي نهبت خيراته أما الهدهد فكان يرمز لرفض محبي التخريب ثقافة الحوار من خلال إيقافهم له عن الكلام.

2- الرمز التاريخي:

إن توظيف الشعراء للرمز التاريخي في أشعارهم هو محاولة لإثراء تجاربهم الشعرية الإبداعية على وجه الخصوص، حيث يمثل الماضي رافدا من روافد الشاعر الحدائي منه يستقي وقائعه ومثله ونماذجه، فللإنسان قيمة ثقافية ونفسية وثيقة الصلة بالماضي والشاعر يحاول شحن نصوصه برموز ترمي إلى أمور خفية لأن "النص في حقيقة الأمر تنوع أو توزيع لبنية واحدة رمزية أو ثيمائية أو ما شاكل ذلك وهذه العلاقة التي تستبد إلى بنية واحدة هي التي تشكل الدلالة، ويحدث الأثر النهائي للقراءة الاسترجاعية"⁷ عن طريق القراءة المنتجة للدلالات.

إذا اطلع على الشعر الجزائري المعاصر سيلاحظ أن الشاعر الجزائري قد التفت إلى توظيف الرموز التاريخية والتي تقظم الرموز الدينية والتراثية والسير الشعبية وأسماء الشخصيات والأماكن التي اقترن اسمها بأحداث تاريخية فكان التلاحم بين هذه الرموز التاريخية تلاهما لا يمكن الفصل فيه، فالمبدع الجزائري اهتم بتمثيل التراث الذي هو في رأيهم أساس التجربة الشعرية عن طريق استحضار الشخصيات التاريخية وتمثيلها على حسب الرؤى المعاصرة: "فالشاعر يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد أن ينقلها إلى

المتلقي" ⁸ بطريقة إبداعية تنقل الحدث التاريخي الماضي إلى الحاضر المعاش ومن الشعراء الذين قاموا باستدعاء التاريخ الشاعر يوسف وغليسي في قصيدته "إلى أوراسية"

أسائل البدر عن أهل بلا وطن
وعن منيرة ذاك الحلم إذا أفلا
أستوقف الريح والأمواج أسأها
عن طائف طاف بالأوراس وارتحلا ⁹

يمجد الشاعر رمز الأوراس ليومئ إلى الثورة المجيدة، إلى الشرف والأصالة فهي رمز للهوية الوطنية واعتماد الشاعر على هذا الرمز لغرض تعميق الشعور بالألم من الواقع وجعل القارئ يحن إلى أجواء الأوراس ويتأثر بالمواقف البطولية التي تنبع من إحساس ثوري رافض للفساد ويتأمل التغيير.

3. الرمز الشخصي:

حاول الشاعر الجزائري توظيف الرموز وإعطائها دلالات جديدة وفق العامل النفسي الذي يطوقه، فهو يحاول خلق رموز خاصة به مرتبطة بتجربته الشخصية، "فالرمز الشخصي هو ذلك الرمز الذي يبتكره الشاعر ابتكارا محضا أو يقتلعه من حائطه الأول أو منبته الأساس ليفرغه جزئيا أو كلياً من شحته الرمزية الأولى، ثم يملأه بدلالة شخصية أو مغزى ذاتي مستمد من تجربته الخاصة" ¹⁰ مما يمنح المبدع فضاء واسعا للتعبير بحرية عن تجاربه.

يعد الرمز الشخصي من بين أهم الرموز التي حاول الشعراء الجزائريون محاورتها وتجسيدها في أعمالهم الفنية فكان لكل شاعر رموز خاصة به "يستقيها من الواقع والأحداث المعاصرة" فاتخذت الرموز بذلك عدة دلالات في نفسية الشاعر، ومن هذه الرموز الطبيعة التي "تمثل مكانا حميميا وزمانا متألقا، تقيم فيه الذات بذكرياتها وتلتحم به عضويا بثقافتها وتقاليدها كما تنسب به وتلجأ إليه بديلا لحاضر غائب"^{1 1} والشعراء في توظيفهم للظواهر الطبيعية لم يتعدوا كثيرا عن الدلالات الأولى.

يعد رمز الطبيعة من بين أهم الرموز الخاصة التي شاعت عند الشعراء المعاصرين، فالشاعر "يوسف وغليسي" في قصيدته "تجليات نبي سقط من الموت سهوا" يوظف مظهرها من مظاهر الطبيعة وهو "الريح" ليرمز الصراع الذي يأبى أن يخبو من خلال قوله:

تبعثرني الريح شوقا إلى السّمرات
التي بايعتني شتاء وصيفا
وشاخت... تهاوت وماتت^{1 2}

الريح عامل طبيعي من شأنه أن يحمل دلالة التغيير والهدم، فالريح قد بعثرت شجرة السّمرات التي بايعته في الشتاء والصيف وهذا ما يجسد نوع من الحركية الدالة على الصراع الذي لا يلبث أن يزول على الرغم من تهاوي وموت الشجرة.

والملاحظ أيضا أن هناك امتزاج بين الرموز الطبيعية والرموز الدينية ما زاد هذا الرمز جمالا وقوة، فقد زواج الشاعر بين رمز الريح وبين شجرة السمرات التي بويح تحتها الرسول صلى الله عليه وسلم، فالشاعر يبكي على حال الأمة الإسلامية التي غيرت حالها الريح التي ترمز للتخريب والهلاك فهي لا تغدو أن تكون مقتصرة على تصوير الإبادة والتدمير.

وجد الشعراء في رمز الطبيعة ملاذا لهم يسكبون في وعائها الواقع الذي يعيشونه، ومن الرموز الطبيعية التي زخرت بها دواوين الشعراء الجزائريين رمز الليل الذي حاولوا من خلاله أن يلامسوا الموضوعات المتعلقة بواقعهم، فالليل رمز يحمل صورة الوحدة والكآبة والوحشة والدمار والشر وهذا ما يلمس عند الشاعر "عز الدين ميهوبي" في قصيدته "الجدار" حيث يقول:

متى؟

إنه الليل يأتي...

يحيثون أو لا يحيثون...

لا فرق هم يعرفون...

وانتظر الموت تحت الجدار¹³

يحيل هذا المقطع الشعري إلى نفسية الشاعر المتأزمة نتيجة الوضع المتأزم الذي تعيشه الجزائر والمجتمع من تقتيل، خاصة وأن الجزائر عرفت فترة دموية نتيجة معتقدات مزيفة آمن بها مجموعة من أبنائها فنسوا الرحمة وأصبحوا لا يفرقون بين المرأة والرجل، الطفل والشيخ، فالليل في هذا المقطع زيادة على أنه يرمز للظلام الحالك بما يحمله من صورة مخيفة أصبح يرمز للموت الذي يترقب حضوره مع كل لحظة فتظهر دلالة أخرى وهي دلالة العذاب.

4. الرمز الأسطوري:

ولج الشاعر المعاصر عالم الأسطورة واستفاد من خصائصها محولا منها أداءه فنية في بناء قصيدته إذ يعد "استغلال الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أجرئ المواقف الثورية فيه وأبعادها أثرا حتى اليوم، لأن ذلك استعادة للرموز الوثنية واستخدام لها في التعبير عن أوضاع الإنسان العربي في هذا العصر"⁴¹ فقد أضحت وسيلة للتعبير الشعري وبذلك لعبت الأسطورة دورا هاما في ازدهار الشعر العربي، وبهذا تكون قد أسهمت في إثراء الشعر بجملة من الصور الموحية فهي النجم الخام الذي يمد القصائد الشعرية بجملة من المعتقدات الفلسفية والخرافية.

عمد الشعراء الجزائريون إلى استكناه صورهم الفنية من خلال الرمز الأسطوري فراحوا يوظفون النماذج الأسطورية بأبعادها الإيحائية وتمثلها في تجاربهم المعاصرة فالأسطورة "إذ وجدت صدى خاصا في نفسية الأديب أو إذا وجدت بعض الومضات الغائمة في لا وعي الشاعر في بعض المعطيات الأسطورية صورتها الرمزية التي تضيئها وتنقلها إلى الشعور عندئذ فقط يتم اعتماد الأسطورة وتحقق الصلة بين الأسطورة والتجربة الشعرية" ^{5 1} وبذلك أضحت الأسطورة جزءا من جزئيات الإنتاج الشعري المعاصر فهي تعكس فكر موظفيها الذي اختار منها ما يناسب ظروفه السياسية لتكون الستار الذي يحتمي به حتى يتمكن من التعبير عما لا يمكن التعبير عنه صراحة وعلى هذا الأساس كانت الأسطورة المعين للشاعر في نسج نصه الإبداعي.

إن من بين أهم الشخصيات الأسطورية التي استهوت الشعراء واستعانوا بها في نسج نصوصهم أسطورة "سيزيف" التي تعد رمز للمعاناة والعذاب الأزلي واعتماد الشاعر على هذه الشخصية الأسطورية قائم على جذور نفسية عميقة وعلى رغبة الشاعر ومحاولته إخفاء شخصه عن الواقع.

تتجسد أسطورة سيزيف عند الشاعر عبد القادر راجحي الذي استدرج هذه الأسطورة لخدمة نصه حيث يقول في قصيدته "عودة سيزيف"

أثرث...

حين يمرّ على كاهلي

جرح سيزيف

أهجع حين يصدّقني

حزنه

وهو يذرو جراحاته للرياح

ويصبر

علّ الذي فات أكبر مما تبقى¹⁶

يحسد الشاعر في هذا النموذج معنى الصبر الذي يجسد
سيزيف الذي يحمل الصخرة إلى أعلى الجبل فمواجهته
للمصاعب هو دلالة على استمرارية الحياة إلى أن يقول:

أتصور وطننا

والخشود تطوف توارينها

حوله

عليها تتطهر من رجسها

من عذابات سقطتها...

وتطيل الدعاء...

علها ترتوي من سحابات زمزمه

علها تتماثل من عينها

للشفاء....

سيزيف الذي عاد هو سيزيف مختلف عن ذاك الذي
عذبه الآلهة بل ما هي
الأرض الآن تحضنه
تحنفي كالصبي بعودته
تطلع في طوله
تستريح في ضلعه¹⁷

في هذه القصيدة يقوم الشاعر باستحضار فضاء
أسطوري متعلق بشخصية سيزيف الذي عاقبه الآلهة بحمل
الصخرة إلى أعلى الجبل ثم ما يفتأ يوصلها حتى تندرج
الصخرة ليعاود حملها خائبة وهكذا ولكن الشاعر في هذه
القصيدة يضفي غرابة من خلال ذكره للفظـة "عاد" التي تحيل
على التنبؤ بعودة وطن جميل بعودة سيزيف جديد مختلف عن
سيزيف الذي يرمز للمعاناة فهو يتنبأ بعودة الأمل والاستقرار
في وطن عاش الحرمان والضياع.

إن فكرة الموت والانبعاث سيطرت على معظم الشعراء
المعاصرين فوجدوا في أسطورة العنقاء ما يخدم تجاربهم، ومن
النماذج الشعرية الشاعر قول "عز الدين ميهوبي":

سبقت إلى سوق الزمن

أمتد فيك
ومن دمي...
سأقد أحلام الوطن
يا أيها الزمن الملطخ...
بانهزامات العرب!
مهلا... فهذي الأرض
تنبع بالبداية¹⁸

يرسم الشاعر في هذه اللوحة الفنية صورة مغايرة عن صورة الزمن الذي كتبت فيه هذه القصيدة فالشاعر يتماهى مع الطائر العنقاء وهو طائر أسطوري يوحى بالحياة والبعث بعد الموت، ليصور كيف تتحدى الجزائر الموت لتولد منه وتعلن عودتها من جديد من قلب المواجه حتى تزهو الأرض وتوقد أحلامها بعدما انطفأت، ها هي اليوم تعود من جديد ليكبر معها هذا الوطن.

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أن الشعراء الجزائريين حاولوا توظيف الأسطورة في إبداعاتهم بغية تقريب الصورة إلى ذهن القارئ فهي "روح الشعر وهاجسه الدائم وتعد ملهم الشعراء حيث كان هناك توافق بينهما وبين الشعر"¹⁹ وبذلك فالأسطورة تعبير رمزي يقوم بتقريب

المسافة بين الشاعر والمتلقي فهي تحمل دلالات إيحائية تجسد التجارب الشعرية.

وانطلاقاً من هذا التصور يمكن القول أن الشعر الجزائري احتفى بالرمز الذي ولج عالم القصائد الجزائرية وأصبح أحد الركائز التي تقوم عليه صوره، لما فتحه أمامها من إيحاءات فالرمز ما هو "إلا وجهها من وجوه التعبير بالصورة"²⁰ ولهذا عمد الشعراء إلى إثراء متونهم الشعرية عن طريق حشد ما أمكن من الدلالات، للكشف عن مكنون النص الأدبي "فالرمز هو قيل كل شيء معنى خفي وإيحاء، إنه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة أو هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة"²¹ وبذلك فهو العامل المهم في تكوين الصورة وفي خدمة الموضوع حتى تتحقق قيمته الجمالية.

الإحالات:

¹ - عناد غزوان: أصداء دراسات أدبية تقليدية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص. 225.

² - علي جعفر العلاق: في حداثة النص الشعري - دراسة نقدية -، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 1، 2003، ص. 45.

³ - محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط. 2، بيروت 2006، ص. 549.

⁴ - صلاح فضل: إنتاج الدلالة الأدبية، مؤسسة غنار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 1، دت، ص. 59.

⁵ - يوسف وغليسي: تغرية جعفر الطيار، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط. 2، 2004، ص. 40.

- ⁶ - المرجع نفسه، ص. 27.
- ⁷ - سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، دار إلياس المصرية، القاهرة، 1986، ص. 217.
- ⁸ - عبد الحميد هيمة: البنيات الأسلوبية في الشعر الجزائري، دار هومة، الجزائر، ط. 1، 1998، ص. 107.
- ⁹ - يوسف وغليسي: تغرية جعفر الطيار، ص. 60.
- ¹⁰ - علي جعفر العلاق: في خلدات النص الشعري، دراسة نقدية، ص. 47.
- ¹¹ - إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي الجزائري 1925-1962، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص. 108.
- ¹² - يوسف وغليسي: تغرية جعفر الطيار، ص. 30.
- ¹³ - عز الدين ميهوبي: كاليغولا يرسم غريكا الرئيس، ص. 30.
- ¹⁴ - إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 1، 1992، ص. 175.
- ¹⁵ - رجاء أبو علي: الأسطورة في شعر أدونيس، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط. 1، 2009، ص. 125.
- ¹⁶ - عبد القادر راجحي: أرى شجرا يسير، منشورات ليجوند، الجزائر، ط. 1، 2001، ص. 20.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص. 20.
- ¹⁸ - عز الدين ميهوبي: في البدء كان أوراس، ص. 56.
- ¹⁹ - عثمان حشلاف: التراث والتجديد في شعر السياب، دراسة تحليلية جمالية في مواعيد، صور، موسيقاه، لغته، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 20.
- ²⁰ - ناصر لوحيشي: الرمز في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط. 1، 2011، ص. 186.
- ²¹ - أدونيس: زمن الشعر، دار السيفاني، بيروت، لبنان، ط. 6، 2005، ص. 269.